

التركيبة الاجتماعية في الغرب الجزائري قبيل الاحتلال الفرنسي .

فارس العيد¹

مقدمة:

عرفت منطقة الغرب الجزائري إبان العهد العثماني ببابليك الغرب، الذي كانت عاصمته مازونة ثم معسكر ثم وهران بعد أن تم تحريرها من الإسبان نهائيا في سنة 1792م من قبل الباي محمد الكبير، و بعد احتلال مدينة وهران من قبل الفرنسيين أصبحت تعرف هذه المنطقة بمقاطعة وهران، وتمتد هذه الرقعة الجغرافية من وادي عطية غربا في آخر بلاد مسيردة و هو الحد الفاصل بين أراضي قبيلة مسيردة و أرض بني خالد، و هم بطن من قبيلة بني زناسن التي تتقاعد مضاربها في شرق المغرب الأقصى، ثم يميل هذا الوادي شرقا على مناصب واد كيس في أطراف أرض أنكاد وصولا إلى جبل مديونة مقابلا لمدينة وجدة المغربية، أما شرقا فتصل حدودها إلى واد الشلف حتى المصب في عين كرمان و غليزان مع الظهرة و الونشريس، و تمتد هذه المنطقة شمالا من سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى الصحراء⁽¹⁾، وقد كانت هذه المنطقة قبيل الاحتلال الفرنسي مترامية الأطراف تقطنها مجموعات سكانية متميزة، منقسمين مابين أغلبية من سكان الأرياف وأقلية وهم سكان المدن ، وقد كانت الفلاحة النشاط الاقتصادي الأساسي للسكان وكان للحكم العثماني في الجزائر انعكاسات اجتماعية كثيرة، ظهرت نتائجها بشكل واضح عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر ، حيث أثرت التركيبة الاجتماعية على سيرورة المقاومة التي شهدتها المنطقة ضد الاحتلال الفرنسي ، وبالتالي فمن المهم التعرف على التشكيلات المكونة للنسيج الاجتماعي في الغرب الجزائري خلال فترة ما قبل الاحتلال الفرنسي و تحري طبيعة العلاقات التي كانت تربط بين تلك التشكيلات.

1 سكان الارياف:

لقد تميز النظام المطبق من قبل العثمانيين ببابليك الغرب الجزائري على سكان الريف بالبساطة و القوة في نفس الوقت، حيث كانت الإدارة المباشرة لهذا البابليك بين ثلاثة رؤساء هم أصحاب النفوذ و يستلمون مداخل الجباية و يعينون القادة، و هؤلاء الرؤساء هم آغا الدواير و آغا الزمالة في الناحية الغربية من البابليك، و خليفة الباي في الناحية الشرقية¹ حيث كان هذا الأخير يدير المناطق الواقعة شرق مازونة إلى

¹ أستاذ مساعد (أ) جامعة الشلف،الجزائر

غاية حدود بايلك الغرب مع بايلك التيطري، و على العكس من ذلك كانت المناطق التي يديرها آغا الدواير و آغا الزمالة غير محددة برقعة جغرافية معينة ⁽²⁾، فالمناطق التي كانا يديرانها متداخلة مع بعضها البعض، و لذلك كان التقسيم لا يتعلق بمنطقة جغرافية معينة و إنما يتعلق بالقبائل، و هكذا فإن ممارسة مهامهما كانت تقودهما إلى نفس المناطق، و لذلك فإذا أراد أحدهما التمرد كان له الثاني بالمرصاد ⁽³⁾.

أ- قبائل المخزن:

تعتبر قبائل المخزن تجمعات سكانية اصطناعية متميزة في أصولها مختلفة في أعراقها، فمنها من أقره الأتراك بالأراضي التي وجدت عليها لتكون سندا لهم، و منها من استقدم من جيهاث مختلفة، ليؤلفوا جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة السلطات العثمانية، و بفعل الانتساب و الاستقرار و النشأة على أراضي البايك اكتسبت هذه القبائل كيانا مستقلا متميزا ⁽⁴⁾، و لقد كان أهل المخزن في الفترة العثمانية بالجزائر ينقسمون إلى عدة فئات، فهناك قبائل المخزن المستفيدة من إدارة القبائل الواقعة تحت إدارتها المباشرة، و هناك المخازنية و هم المقاتلين المجهزين عسكريا من قبل السلطات العثمانية، و يستفيدون من أراضي غير خاضعة للضريبة، كما هناك قسم آخر لا يحوزون على نفس الامتيازات الممنوحة للصنفين السابقين، بل كانوا يقومون بأمور الفلاحة و لا يختلفون عن قبائل الرعية إلا من حيث أنهم يستفيدون من ألقابهم كأهل مخزن للحصول على الحماية ⁽⁵⁾.

وكانت قبائل المخزن تدعم مركزها الاجتماعي في أواخر العهد العثماني بالأعمال الحربية ضد

القبائل الضعيفة بالإضافة إلى حصولها على حق استغلال الأراضي الشاسعة، التي كانت تعرف بالمشاتي التابعة للبايلك مقابل دفع ضريبيتي الزكاة و العشور و تزويد دار اللي بجميع المستلزمات ⁽⁶⁾.

نظرا للضعف الذي أصاب السلطة العثمانية في أواخر عهدها بالجزائر تمكنت بعض قبائل المخزن من الحصول على حق تملك الأراضي الواقعة تحت سيطرتها، و هو ما أدى بهذه القبائل إلى ممارسة نوع من أنواع الإقطاع، و يمكن القول أن إقطاع قبائل المخزن في بايلك الغرب، كان جد مؤثر في المنطقة على اعتبار أنها كانت تسيطر على 78% من الأراضي الزراعية بالمنطقة ⁽⁷⁾، و يعود ذلك إلى المساحات الشاسعة التي منحها لهم الباي محمد الكبير عقب تحرير مدينة وهران سنة 1791، في مختلف جهات البايك، خاصة بضواحي وهران ⁽⁸⁾.

ولذلك نجد بأن هذه القبائل كان لها تأثير واضح على النسيج الاجتماعي بايلك الغرب قبيل

الاحتلال الفرنسي ⁽⁹⁾، من خلال تأثيرها على توزيع السكان بالأرياف، فسيطرت على الأراضي الخصبة

جعل بقية السكان يلجئون إلى المناطق الجبلية و السهول المقفرة و الواحات النائية، كما أدت إلى ترسيخ التفاوت الاجتماعي بينها و بين القبائل الأخرى، باستفادتها من وضعها كطبقة وسطى في الأرياف تشد المحكوم إلى الحاكم، بطريقة فيها الكثير من العنف أدى إلى زيادة النزعة القبلية، و من ناحية أخرى فإن قبائل المخزن كان لها دور فعال في الحد من حياة البداوة القائمة على الترحال، بانتقالها إلى الاستقرار⁽¹⁰⁾.

تقدر بعض الإحصائيات تعداد قبائل المخزن⁽¹¹⁾ في بايلك الغرب بعوالي 46 قبيلة، تنقسم إلى قسمين، فهناك قسم يتمثل في القبائل المخزنية الحربية البالغ تعدادها حوالي 36 قبيلة، و القسم الثاني تشكله القبائل المخزنية المشتغلة بالفلاحة البالغ تعدادها 10 قبائل وهي ذات الامتيازات الأقل مقارنة مع القسم الأول⁽¹²⁾، ومن بين قبائل الصنف الأول المشكلة لمخزن آغا الدواير نذكر دواير البحائية بوادي صبيح بعين تيموشنت، و قبيلة هاشم الدروغ "التحاتا" و "الفوقا" بمستغانم، و دواير فليته و الدوالي بزمورة، و قبيلة الحشم بفرعيها الشرافة والغرابة بضواحي معسكر بالإضافة و قبيلة أولاد رياح بالرمشي في ضواحي تلمسان، وأما القبائل المخزنية الحربية المشكلة لمخزن آغا الزمالة فنذكر منهم: قبيلة الزمالة بسهل تليلات، وحميان الملاح شرق وهران، و قبيلة المكاحلية بضواحي معسكر. و لقد كان مخزن خليفة الشرف يتكون هو الآخر من عدة قبائل حربية نذكر منهم: قبيلة بني فاطم بمنطقة الج ندل و قبيلة عبيد عين الدفلى، و الفراحلية بجسر الشلف و صباحية وادي الشلف، و قبيلة حشم وادي الدردور بعين سلطان⁽¹³⁾.

وأما الصنف الثاني من قبائل المخزن و هم القبائل المخزنية المشتغلة في الفلاحة ببائلك الغرب فنذكر منهم: قبيلتي أولاد خالف و أولاد الزاير بعين تيموشنت، و قبيلة أولاد صابر بعمي موسى، و قبائل الدواوجية و فرافة و الزهالدية ببوهني بضواحي معسكر، و قبيلتي عتبة الجبالا و بني شفران بمعسكر، و قبائل أولاد سعيد و بني نيغ و الفراقيث و حجاجة و بني مستور بضواحي تلمسان⁽¹⁴⁾.

ب- قبائل الرعية:

تتألف قبائل الرعية من المجموعات السكانية الخاضعة مباشرة للبايلك، و المقيمة بالأراضي التي تسهل فيها مراقبتها من طرف قبائل المخزن، و تعبرها فرق الحاميات العثمانية⁽¹⁵⁾، و هذه القبائل لم تحظى بأي امتياز لدى السلطات العثمانية، فلقد كانت معرضة باستمرار للاضطهاد و الاستغلال المستمر من قبل رجال البائلك و فرسان المخزن⁽¹⁶⁾.

وقد قسمت قبائل رعية بايلك الغرب إلى عدة مجموعات فعنها مجموعة كانت تخضع مباشرة للباي وهم بني عامر و مجاهر، أما المجموعات الأخرى فكانت تتبع إما لخليفة الباي أو قائد فليقة أو قائد المدينة أو قائد الجبل أو قائدي اليعقوبية الشرقية و الغربية⁽¹⁷⁾.

ونظرا لاستقرار هذه القبائل بأماكن قريبة من تركز قبائل المخزن، كانت هذه القبائل تدفع ضرائب كثيرة كالمعونة والغرامة و الزمة و المكوس، بالإضافة إلى العشور و الزكاة⁽¹⁸⁾. و قد أدى هذا الضغط المفروض عليها إلى تفككها فلم تعد تعتمد في تجانسها و تلاحمها على الأصل المشترك و الانتساب العرقي وإنما أصبح تلاحمها يتركز على الظروف المعاشية و معاملة الحكام لها، فقبيلة كريشتل مثلا تكونت نتيجة تآلف مجموعة من الناس جاؤوا من جهات مختلفة إلى المنطقة المعروفة باسمهم إلى حد الآن بضواحي وهران⁽¹⁹⁾.

يقدر تعداد قبائل الرعية في بايلك الغرب بحوالي 56 قبيلة⁽²⁰⁾، و لقد كانت هذه القبائل تابعة للأغاليك الثلاثة المشكلة لبائلك الغرب، فمن بين قبائل الرعية التابعة للأغاليكي الزمالة و الدواير نذكر: قبيلة تاحلايت و قبيلة مجاهر⁽²¹⁾ بعين سريدي الشريف و عين تادل و بوقيرات و جسر الشلف، و مجموعة قبائل فليقة التي كانت تقطن بنعمورة، و قبيلة زادمة بفرندة، و مجموعة قبائل أولاد خليف و مجموعة قبائل أولاد الشريف بضواحي تيارت، و أولاد سيدي خالف بمنطقة سعيدة، يضاف إلى ذلك قبيلة الشرفا القطارنية، و قبائل بني عمور بعين تموشنت، و قبائل ذوي يحيي بسبدو إضافة إلى مجموع قبائل ترارا برشقون، و مجموع قبائل الغسل بضواحي تلمسان. وأما قبائل الرعية التابعة لأغاليك خليفة الشرق فنذكر منهم: قبيلتي الحراوت و الزوا و قبائل بني زقرف ما عدا قبيلة وزغارة التي كانت من قبائل المخزن و كانت مضارب هذه القبائل تنتشر بثنية الحد و منطقة براز، و قبيلتي بني شعيب و بني بوحطاب بالونشريس، و قبائل العطاف ما عدا فرعين منها كانا تابعين لقبائل المخزن و هما: عطاف الواد و وزغيرة، إضافة إلى مجموعة قبائل براز بالشلف، بالإضافة إلى قبيلة الخمسي و أولاد القصير و بني راشد و شوشاوة بضواحي تنس، و مجموع قبائل الصبيح بالمنطقة الممتدة ما بين تنس و الشلف، و قبائل بني زروال بمديونة و ضواحيها، و قبائل مغراوة بللقمارية و ضواحيها⁽²²⁾.

ج- المجموعات السكانية المتحالفة مع سلطات البائلك:

هي تلك المجموعات السكانية التي كانت تتخذ علاقتها مع السلطات العثمانية صفة الحليف فقط عن طريق شيوخها و زعمائها المحليين الذين أصبحوا بحكم العادة و العرف يتوارثون حكمهما، معتمدين في ذلك على نفوذهم أو كفاءتهم الحربية أو أصالة نسبهم⁽²³⁾. و قد غلب على هذه العائلات التي تولت حكم مجموعات القبلية المتحالفة في غرب البلاد الطابع الروحي (المرابطون)⁽²⁴⁾، ولقد كانت بعض هذه القبائل ذات نفوذ واسع في أواخر العهد العثماني كأولاد سيدي الشيخ، و هو ما جعل السلطات العثمانية تتقرب من شيوخها بالهدايا و الاموال حتى تضمن بقاء هذه القبائل واسطة بينها و بين سكان الأرياف البعيدين عن سلطة البايك، كما كانت تقوم بتشجيع الصراعات بين القبائل الأحلاف الكبرى حتى تضعفها و تصبح غير قادرة على تهديد سلطة البايك⁽²⁵⁾، و هو ما أدى إلى تقوية العصبية لدى هذه القبائل و جعلها تتقاتل فيما بينها، كما كان العثمانيون يسرون حملات بين الفينة و الأخرى ضد هذه القبائل إذا امتنعت على دفع ما يترتب عليها من ضرائب، و هو ما أدى بهذه القبائل إلى العيش حياة اجتماعية غير مستقرة، فبحثها عن الأمن كان شغلها الشاغل⁽²⁶⁾.

بلغ مجموع قبائل الأحلاف في بايلك الغرب حوالي 29 قبيلة، كان بعضها يقطن في المناطق التابعة لآغا الدواير و الزمالة، و بعضها بالمناطق التابعة لخليفة الشرق⁽²⁷⁾، و من بين قبائل المجموعة الأولى نذكر أولاد سريدي بوعبد الله المغوفل بسهل الشلف و ضواحي مستغانم، و في جنوب الظهرة، و مجموعة قبائل بني مسلم التابعين لزاوية الشاذلية بمنطقة عمي موسى، و أتباع زاوية سيدي دحو بمعسكر، و أتباع زاوية أولاد سيدي عامر بن الدبة بوادي الحداد ، إضافة إلى مجموعة قبائل الحرار بضواحي تيارت، و أتباع أولاد ميمون بجبل عمور ، و مرابطي أولاد سيدي الناصر بضواحي آفلو⁽²⁸⁾ ، بالإضافة إلى أولاد سيدي علي الشيخ⁽²⁹⁾ بالبيوض سيدي الشيخ حيث أقاموا زاويتين، و هناك أيضا مجموعة من قبائل حيان الشرافة بالأغواط، و كذا قبيلة أولاد سيدي مجاهر بلالا مغنية، و قبيلتي بني مساهل و بني منير من مجموعة قبائل طرارا بندرومة، و بني مناصر بسبدو، وكذلك أولاد النهار بمنطقة العريشة⁽³⁰⁾.

وأما المجموعة الثانية من الأحلاف التي كانت تقطن في المناطق التابعة لخليفة الشرق فنذكر منهم: قبائل النهار الكسل و أولاد بسام بثنية الحد و قبيلة أولاد عمار بمنطقة الوشريس، بالإضافة إلى مشيخة الجندل بحمام ريعة، و مرابطي بني فراح و بني غومريان بمنطقة براز، و مرابطي محاجة بلشلف⁽³¹⁾.

د- المجموعات السكانية المستقلة عن سلطة البايك:

بقيت هذه المجموعات السكانية ممتنعة عن السلطات العثمانية، مستقلة عنها في مناطق نائية تصعب المعيشة فيها كجبال الون شريس و طرارة و الهضاب الوهرانية ومناطق الأطلس الصحراوي وتخوم الصحراء، ولقد كان على رأس هذه المجموعات شيوخ يستمدون سلطتهم من تنفيذ عائلاتهم⁽³²⁾، ونظرا لعدم اعتراف هذه المجموعات بسلطة البايك جعلها ذلك تعاني من عدة إجراءات قمعية اتخذتها سلطات البايك ضدها لإرغامها على الخضوع، و هو ما جعلها تعيش أوضاعا اجتماعية جد صعبة، فبالإضافة إلى تمركزهم في مناطق تصعب فيها المعيشة، كانت سلطات البايك تنصب الحاميات و قبائل المخزن في الأماكن التي تتحكم في طرق مواصلات هذه المجموعات، كما كانت تضيق الخناق عليها بمراقبة الأسواق التي تترد عليها⁽³³⁾، وعندما كانت هذه الإجراءات لا تجدي نفعا كان الحكام العثمانيون يسيرون حملات عسكرية ضد هذه المجموعات فلم يؤدي بمذه الأخيرة في أغلب الأحيان إلى الإذعان، أما إذا تعذر إخضاع القبائل النائرة منها فإن الحكام العثمانيين كانوا يلجؤون إلى تثبيتها في مناطق معينة و تنزع الأراضي الخصبة منها، مثلما حدث لقبيلتي الأحمال و سويد بالشلف و وهران على التوالي⁽³⁴⁾.

بلغ تعداد المجموعات السكانية المستقلة عن السلطات العثمانية حوالي 26 مجموعة سكانية⁽³⁵⁾، و نذكر منهم: قبيلة بني وراغ و مكناسة بعصي موسى، و أولاد يعقوب الزرارة بآفلو، و الحساسنة بمنطقة سعيدة، و الأنجاد بالعريشة في ضواحي تلمسان، و مجموعة حميان الشرابا بالمشربية و عين الصفراء، و أولاد عمور في المنطقة الممتدة ما بين فيثيف و عسلة على الحدود المغربية الجزائرية الجنوبية، و كذا أشرف أولاد مولاي عبد المالك، و زاوية عين ماضي التي كانت تسيطر على حوالي خمسة قصور، كما كان لديها نفوذ على سكان مناطق تامنيط و تيماسين، و هناك أيضا بني سنانس بلالا مغينية، إضافة الى مجموعة مقرارة الظهرة وبني درجين بنس و ضواحيها، وكذلك مجموعة عريب و زكار و مطماطة بثنية الحد بضواحي الشلف، و أهل شرين و أولاد هلال المهرزين في المنطقة الممتدة ما بين بوغار و الونشريس⁽³⁶⁾.

2- سكان المدن:

اعتمد العثمانيون في إدارتهم لسكان المدن على تعيين قائد على كل مدينة يكون تابعا للباي، و يوضع تحت تصرفه نقيب أو أمناء الحرف و مقدم الطائفة اليهودية، حيث كان لكل حرفة أمين مكلف بمراقبة العمال و إعطاء تراخيص مزاولة الحرفة التي هو أمينها، وهناك أمين الباب و هو وكيل يستلم حقوق الاحتكار و الديوانية و يدفع عن هذه الوظيفة مبلغا معيناً لخزينة الباي، أما قائد الزبل فكان مكلفا

بالنظافة، إضافة إلى قائد القصبه المكلف بمهام الشرطة، و هناك الراح المسؤول عن الإعلان، و وكيل بيت المال الذي يدير التركات التي لا وارث لها، و يتولى كذلك مهام الدفن و صياقة المقابر⁽³⁷⁾.

ومن بين أهم مدن بايلك الغرب في أواخر الفترة العثمانية نجد مدينة وهران التي كان بها حوالي 9000 ساكن⁽³⁸⁾، و مدينة تلمسان التي كان تعداد سكانها حوالي 10.000 ساكن⁽³⁹⁾، إضافة إلى مدينة معسكر و مازونة ، و لقد كان يعيش في هذه المدن عدة عناصر اجتماعية مشكلة لنسيجها الاجتماعي و هم الأتراك و الكولوغليين و الحضرة و البرانيين و اليهود، و كان لكل عنصر من هذه العناصر وضعه الاجتماعي الخاص به

أ- الأتراك :

كانت فئة الأتراك⁴⁰ تتشكل في أغلبها من الجنود الانكشاريين الموزعين في حاميات عسكرية على أهم مدن بايلك الغرب، كوهرة التي كان بها حوالي 1300 عنصر تركي، و تلمسان التي لم يتجاوز تعدادهم بها المئات⁽⁴¹⁾، و لقد كان تعداد العناصر التركية في الجزائر عامة في أواخر عهدهم بالجزائر حوالي 10 آلاف فرد فقط⁽⁴²⁾، و تعود قلة الأتراك في الجزائر - بالرغم من الفترة الطويلة التي قضوها فيها - إلى حالة العزوبة التي كانوا يعيشونها، و التجائهم إلى استقدام مجموعات تركية بين الحين و الآخر من الأناضول⁽⁴³⁾.

وعاشت هذه الفئة في حالة عزلة عن بقية الفئات الاجتماعية الأخرى فحتى أبناءهم الكراغلة لم يعترفوا بهم و ذلك للحفاظ على امتيازاتهم، إضافة إلى تمسكهم بعاداتهم و لغتهم و نمط حياتهم مما جعلهم لا يتجانسون مع باقي السكان ، و هو ما أدى إلى تردي العلاقة بين الطرفين فكانت تتميز بالعدائية و النفور في أغلب الأحيان⁽⁴⁴⁾. فلقد استأثر الأتراك بالسلطة فكان منهم القادة و الإداريون و الانكشارية، و لم يتركوا الفرصة لباقي السكان بتسلم مقاليد الحكم في البلاد⁽⁴⁵⁾، و بالإضافة لممارستهم السلطة كانوا يشغلون بالتجارة غير قلة عددهم لم يؤثر في البنية الاجتماعية لسكان المدن فتأثيرهم لم يتعدى الأنظمة الإدارية، و لم يتجاوز الألقاب و الرتب العسكرية، فوجودهم في الجزائر كان عسكريا و إداريا فقط⁽⁴⁶⁾.

ب- الكراغلة:

تكونت هذه الجماعة نتيجة تزواج أفراد الجيش الانكشاري بنساء البلد، و ظهرت لأول مرة في المدن التي تقيم بها الحاميات العثمانية كتلمسان و معسكر و مستغانم و مازونة⁽⁴⁷⁾، أما في تلمسان فقد

كانوا يشكلون بها أغلبية السكان ، حيث كان تعدادهم حوالي 4.000 فرد، و كانوا يؤلفون في هذه المدينة شبه حكومة خاصة بهم، و يتقاسمون سلطة المدينة مع الحضر حيث كان لهم فيها ديوان خاص⁽⁴⁸⁾ بهم له صلاحيات معترف بها، حيث كان يسمح لهم باستخلاص ال ضرائب من الجهات الجبلية الصعبة كمضارب بني سنوس و بني رافاس و طرارة⁽⁴⁹⁾.

و على عكس الأتراك فإن الكراغلة كان تعدادهم في تزايد مستمر قبيل الاحتلال الفرنسي حيث وصل عددهم الى حوالي 20.000 فرد، كما كان تواجههم في خ ارج المدن الرئيسية أيضا⁽⁵⁰⁾. و نظرا لخصوصيتهم العرقية نجدهم قد احتلوا المركز الثاني في السلم الاجتماعي، فكانوا طبقة ميسورة الحال، تمارس التجارة و تشتغل بالمهن و تستثمر في الملكيات الزراعية بالفحوص، إلا أنهم لم يشاركوا بصفة فعالة في حكم البلاد، و ذلك لرغبة الأتراك في الحفاظ عزلتهم مستأثرين بالسلطة وما احتكروه من امتيازات⁽⁵¹⁾، و هو ما أدى إلى تردي العلاقة بين الطرفين بعد الاضطهاد الذي تعرض له الكراغلة من طرف الأتراك، الذين لم يستسيغوا تطلع الكراغلة لمناصب مهمة في تسيير البلاد⁽⁵²⁾، إلا أن هذه العلاقة المتردية سرعان ما شهدت بعض التحسن مع تولي بعض الكراغلة لمناصب مهمة، كوصول مصطفى العمر إلى منصب باي الغرب في الفترة الممتدة ما بين 1736 و 1748م و بعد ذلك اهتمت هذه المجموعة بتنمية ثروتها و استغلال أملاكهم و تنشيط تجارتهم، فحصولهم على ترضيات من الأتراك جعلهم لا يتطلعون إلى المناصب السياسية⁽⁵³⁾.

و نظرا لهذا التقارب الذي كان بين الأتراك و الكراغلة، فان علاقة هؤلاء مع باقي السكان الجزائريين سيئة ، حيث كان السكان الاصليين ينظرون إلى الكروغولي نظرة لا تختلف عن نظرتهم للأتراك⁽⁵⁴⁾، و خير دليل على ذلك تلك الاضطرابات التي حدثت في سنة 1805 م بين سكان مدينة تلمسان و الكراغلة المتحصنين بقلعة المشوار ، ولم تنتهي تلك الاضطرابات إلا بتدخل الباي محمد بن محمد المقلش (1805-1809)⁽⁵⁵⁾، و ستظهر هذه العداوة بين الطرفين بشكل واضح خلال المقاومة الوطنية التي امتدت ما بين 1830 و 1847م.

ج- الحضر:

هم تلك المجموعة السكانية التي كانت تقطن المدن بصفة دائمة، فمنهم البلديون و هم السكان القاطنين بالمدن منذ الفترة الإسلامية، و منهم الأندلسيون الذين طردوا من الأندلس منذ سنة 1601م ، و لقد كان للحضر وضع اجتماعي متميز حيث كانوا يشتغلون بالمهن التجارية و الحرفية، كما كانوا يتولون

السلك القضائي و التعليمي⁽⁵⁶⁾، و بالرغم من جمعهم لثروات هائلة إلا أنهم لم يوجدوا لأنفسهم إطار سياسي يمكنهم من المساهمة في السلطة و بذلك شكل هؤلاء الطبقة الثالثة في السلم الاجتماعي للجزائر العثمانية⁽⁵⁷⁾.

كانت أماكن استقرار هذه الفئة في أهم مدن بايلك الغرب كمعسكر و مازونة و مستغانم و وهران و تلمسان⁽⁵⁸⁾ التي كان بها حوالي 7.000 فرد من الحضر⁽⁵⁹⁾، و لقد كانت علاقة الحضر بالأتراك تتسم بالتفاوت، فالعلماء و الفقهاء منهم الذين كانوا يساعدون السلطات العثمانية في تسيير البلاد كانوا يحضون باحترام الأتراك و باقي السكان ، إلا أن أصحاب الأملاك منهم كانت علاقتهم بالأتراك و الكولوغليين تتسم بالنفور و العدائية، نظرا للمصادرات و التضييق الممارس من طرف هؤلاء ضدهم، كما أن علاقتهم بباقي السكان لم تكن أحسن حالا، فوضعهم الاجتماعي جعلهم يترفعون عن باقي السكان الذين كانوا يعيشون في فقر متقع، بينما كان الحضر من أصحاب الثروات⁽⁶⁰⁾.

د-البرانية:

تشكل هذه المجموعة من عدة عناصر غادروا مواطنهم الأصلية للعمل في المدن الكبرى، وكذا العبيد السود الذين استقدموا من السودان عن طريق الواحات الصحراوية، و لقد كانت عناصر الأرياف في المدن معروفة باسم القبيلة أو الجهة التي قدموا منها، و كانوا يشتغلون في نشاطات اقتصادية متواضعة⁽⁶¹⁾، و كان على رأس كل مجموعة منهم أمين يختاره الباي للإشراف عليهم، يكون من المجموعة نفسها فهناك أمين بني ميزاب، و أمين البسكرة، و قائد الو صفان الذي كان يعين على العبيد الذين كان معظمهم يشتغلون بالمنازل و المخازن و البناء⁽⁶²⁾، و مما تجدر الإشارة إليه أن تعداد أفراد طائفة البرانية كان يتراوح بين القلة و الكثرة حسب توفر فرص العمل في المدن التي يقصدونها، و في أواخر العهد العثماني بالجزائر كان تعدادهم بالمدين يتقلص، حيث كانوا حوالي 10.000 فرد فقط في الجزائر العاصمة، أما مدينة تلمسان فكانت تضم حوالي 3.000 فقط⁽⁶³⁾.

تميز البرانية بأوضاعهم الاجتماعية المزرية، فأغلب أفرادها كانوا يعيشون من دخل مهنتهم المتواضعة و الشاقة و قليلة المردود، و لهذا كانوا معرضون لمختلف الأمراض و الأوبئة التي كانت تقتك بهم أولا ثم تنتقل إلى باقي السكان، و نظرا لهذه الوضعية الاجتماعية الصعبة التي كان يعيشها أفراد هذه المجموعة، يمكن اعتبارها جماعة مؤقتة الإقامة في المدن ذات صبغة عرقية، و ارتبط تواجدها في المدن بأوضاعها الاقتصادية، و لذلك لم يكن لها أي تأثير على سياسة البلاد⁽⁶⁴⁾.

هـ - اليهود:

تعود هذه المجموعة في أصولها إلى اليهود المحليين الذين سكنوا الجزائر منذ عهود قديمة، وكذا اليهود الذين هاجروا إلى الجزائر من أوروبا فمنهم من جاء من إيطاليا في 1342م، و منهم من جاء من هولندا في 1350م، و من فرنسا في سنة 1403م، و من إنجلترا في سنة 1422م، بالإضافة إلى يهود الأندلس الذين طردوا من إسبانيا إثر المرسوم الذي أصدره فرديناند دي أراغون و إيزابيل دي كاستيل في سنة 1492م، و الذي خير هم بين اعتناق المسيحية أو الهجرة، و في أواخر العهد العثماني شهدت الجزائر تواجدا لليهود ليفورن كذلك⁽⁶⁵⁾.

وقد استقر اليهود في مدن بايلك الغرب كمعسكر التي كان بها حوالي 450 فرد ، و تلمسان التي كان بها حوالي 2.000 فرد⁽⁶⁶⁾، و وهران التي كان بها حوالي 2.800 فرد ، و لقد كانت إقامتهم في وهران قد شهدت استقرارا منذ تحريرها من الأسبان سنة 1792م على يد محمد الكبير الذي منح فيها لليهود عدة امتيازات كحصولهم على قطع أرض بدون مقابل لإقامة مقابرهم و نظرا لسيطرهم على التعاملات التجارية بالمدينة، فقد جمعوا ثروات طائلة⁽⁶⁷⁾ جعلت بعض العائلات اليهودية من خارج المدينة تهاجر إليها، كعائلة كوهين سلامون من مدينة الجزائر وعائلة كاييزا من المغرب و عائلة فاييسون من جبل طارق⁽⁶⁸⁾، و كان اليهود يحضون بعلاقات جيدة مع الحكام العثمانيين، كما كان أغنياء الحضر يفضلون التعامل مع اليهود على باقي السكان، نظرا لتشابهمهم في طريقة العيش حيث كانت أغلبية الفتتين من أصل أندلسي، غير أن علاقتهم مع باقي السكان كانت تتميز بالحذر فاليهود كان اتصالهم بباقي السكان مبني على مصالحهم الخاصة للحصول على الثروة و النفوذ، و لذلك كانوا معزولين عن بقية السكان الجزائريين⁽⁶⁹⁾. و لقد كان لليهود في كل مدينة، مقدم يدفع ضريبة الجزية، نيابة عن باقي أفراد جماعته، لشيخ البلد أو الباي⁽⁷⁰⁾.

كما تقدم ذكره نستخلص مدى تمايز التركيبة الاجتماعية ببائلك الغرب الجزائري قبيل الاحتلال الفرنسي مما جعل المقاومة الوطنية تواجه تحديات كبيرة لتوحيد جميع القوى لمواجهة الاحتلال الفرنسي ، فقبائل المخزن كانت تبحث عن سلطة جديدة تحتفظ في كنفها بتلك الامتيازات الكبيرة التي حازتها في أواخر العهد العثماني بالجزائر ، ومن ناحية أخرى كانت هناك عدة قبائل تعاني من ظلم الحكام الأتراك ومعاونيهم مما جعلهم يبحثون عن الفرصة الملائمة لاسترجاع أملاكهم المسلوبة ، و بالتالي كان الوضع قبيل الاحتلال الفرنسي بالمنطقة يتسم بالفوضى و انعدام توافق بين وتجهات مختلف العناصر الاجتماعية.

الهوامش:

(1)-محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر، ط2، دار البقعة العربية، دمشق، 1964، ص14. و للتوسع أكثر أنظر:

- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830)، دار هومة للطباعة و النشر، الجزائر، 2005. ص 121
Robert Tinthoin, L'Oranie, sa géographie, son histoire, et ses centres vitaux, L.Fouque, Oran, 1952, PP 9-12.

2)- Paul Boyer, L'évolution de l'Algérie Médiane, Adrien Majonneuve, Paris, 1960, P62
Louis Rinn, Le royaume d'Alger sous le dernier Dey, Adolphe Jourdan, ALGER, 1900, P05
(3)-.

(4) -ناصر الدين سعيدوني، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر: العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 98.
Louis Rinn, op-cit, P07.
(5)-

(6)- Lapène. M., Tableau historique de la province d'Oran (depuis le départ des espagnols en 1792 jusqu'à l'élévation d'Abd-el-kader), Lamort, Metz, 1842, P.46.

(7)- ناصر الدين سعيدوني، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر: العهد العثماني، المرجع السابق، ص 121.

(8)-نفسه، ص 122.

Walsin Esterhazy., Notice historique sur le Maghzen d'Oran, L.Fouque, Oran, 1849, P.15 -
(9)

(10)-ناصر الدين سعيدوني -الشيخ المهدي أبو عبيدي، الجزائر في التاريخ: العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 107.

(11) -كانت قبائل مخزن بابلوك الغرب تتشكل ل من قبائل الزمالة التي كانت تحت امرة بن عودة المازاري ، وقبائل الدواير التي كانت تحت زعامة مصطفى بن إسماعيل المولود بالعامة في سنة 1869 والمتوفي بالبيوض سنة 1843 خدم الأتراك لمدة طويلة ، أصبح بعدها آغا الدواير والزمالة،وقد تحالف مع الفرنسيين وحارب الأمير عبد القادر،و أصبح في سنة 1839 جنرالاً في الجيش الفرنسي،توفي عن عمر ناهز الثمانين .انظر : أديب حرب،التاريخ العسكري و الإداري للأمير عبد القادر الجزائري، ج 1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1983،ص56.

Louis Rinn, op-cit, P.130.

(12)

Ibid, PP55.

(13)

Ibid, PP55-57.

(14)

(15) - ناصر الدين سعدوني، الشيخ المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 107.

(16) - صالح عباد، المرجع السابق، ص 367.

(17) - ناصر الدين سعدوني، الشيخ المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 108.

Paul
-(18)

Boyer,

op-cit,

PP.3-7

(19) - ناصر الدين سعدوني، الشيخ المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 108 .

Louis Rinn, op-cit, P130.

-(20)

(21) - كانت قبيلة مجاهر من قبائل المخزن، قبل أن يتم إدراجها ضمن قبائل الرعية من قبل السلطات العثمانية، سنة 1808، عقب التمرد الذي

قامت به هذه القبيلة ، أنظر . Louis Rinn, op-cit, P62 .

Ibid, PP62-70.

-(22)

Ibid, PP70-71.

-(23)

(24) - ناصر سعدوني، الشيخ المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 108 .

Paul Boyer,,, op-cit, PP.3-7

-(25)

(26) - ناصر سعدوني، الشيخ المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 109 ..

Louis
-(27)

Rinn,

op-cit,

P71

Ibid,P-71-73
(28)

(29) - لقد كان لأولاد سيدي الشيخ نفوذ على معظم القبائل الصحراوية في الجنوب ورقلة و متليلي و جبل عمور و الشط الشرقي و الشط الغربي، و اد فندي، و بلاد فشيف و جبل القيور و التوات، و قفولة و تيديكلت، حيث كان سكان هذه المنطقة يدفعون ضرائب لأولاد سيدي الشيخ،

تعرف بالغفارة، أنظر : Louis Rinn, op-cit,P72

Ibid,P75

-(30)

Ibid,P76-78.

-(31)

Ibid,P04.

-(32)

Ibid,P52.

-(33)

(34) - ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 110.

Louis Rinn, op-cit, P130.

-(35)

Ibid, P78-83.

-(36)

- (37)- صالح عابد، المرجع السابق، ص 297.
- René Lapene, Oran étude de géographie et d'histoire urbain , Librairie Félix Alcan, Paris, (38) 1938 ,P36
- Emrit Marcel, L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, Larousse, Paris, 1951, PP 87-92. (39)
- (40)- كان الباي حسن على رأس هذه الفئة قبيل الاحتلال الفرنسي حيث كان ممثلا لأعلى هرم السلطة العثمانية في بايلك الغرب الجزائري بمدينة وهران ، وقد كان شيخا مسنا في الثمانين من عمره ، تحت إمرته حوالي 800 جندي انكشاري ، كان يجد صعوبة كبيرة في تغذيتهم و دفع أجورهم أنظر :
- Pellissier de Reynaud, Annales Algériennes, T1, Librairie Militaire, Paris, 1854, P.108
- Louis Rinn, op-cit, 55
- (41)- Emrit Marcel, op-cit, P.87.
- (42) -
- (43) - ناصر سعدوني، المهدي بو عبدلي، المرجع السابق، ص 93.
- Venture P. Alger au XVIIIème siècle , Edit Bouslama, Tunis, S.D, P.09.
- (44)- Ibid, P10-11.
- (45)-
- (46) - ناصر سعدوني، المهدي بو عبدلي، المرجع السابق، ص 94.
- (47)- نفسه ، ص 95.
- (48)- كان كولوغليي قبيل الاحتلال الفرنسي الذين تحت إمرة زعيمهم البورسالي وقد استقروا قلعة المشوار بمثابة مدينة داخل مدينة، تشغل الج زء المرتفع من جنوب مدينة تلمسان، تحيط بها أسوار عالية، و يوجد داخل هذه القلعة مسجد و حمام و ثكنة عسكرية، و عدد من مساكن الكولوغليين، كما يمر بهذه القلعة المجرى المائي الذي يومن تلمسان بالمياه ، و بذلك فلقد شكلت هذه القلعة حصنا منيعا للعثمانيين بها. أنظر:
- Cour.A, L'occupation Marocaine de Tlemcen (Septembre 1830 - Janvier 1836), Revue Africaine, OPU , N° 52, Alger, 1908.P36
- Emrit Marcel,op-cit, P.31, P.87
- (49)-
- (50)- ناصر الدين سعيدوني- المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 95.
- (51)- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800-1830)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1979، ص 43.
- (52)- جون بول وولف، الجزائر و أوروبا، ترجمة أبو قاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر، 1986، ص 446.
- (53)- ناصر الدين سعيدوني- المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 96.
- (54)-صالح عباد، المرجع السابق ، ص 358.
- (55)- مسلم بن عبد القادر، "أنيس الغريب و المسافر"، تحقيق ربيع بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر، 1974، ص 28.
- (56)-أبو قاسم سعد الله، "تاريخ الجزائر الحديث: بداية الاحتلال"، معهد البحوث و الدراسات العربية، مصر، 1980 ، ص 61.
- (Genty de Bussy, De l'établissement des français dans la régence d'Alger, Firmin Didot (57) Paris, 1839, P.100

- (58) - من أعيان الحضرة ببايلك الغرب نذكر بن نونة الذي كان من أبرز أعيان حضر مدينة تلمسان، وقد كان صاحب تجارة مزدهرة، نظرا للعلاقات التي كانت تربطه بمدينة فاس المغربية، حيث كان يستقر بعض أفراد عائلته هناك، و نظرا لنفوذ هذا الأخير بتلمسان عين من قبل أهلها قائدا على سكان تلمسان من غير الكولونيين و قد توفي بعد معركة إيسلي التي جرت في سنة 1843، بقليل في مدينة وجدة المغربية، أنظر : Cour.A, op-cit, P.33.
- Emrit Marcel, op-cit, P87
- (59)-
- (60)- ناصر الدين سعيدوني- المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 99.
- (61)- صالح عباد، المرجع السابق، ص 360.
- (62)- ناصر الدين سعيدوني- المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 100
- 63 - (Emrit Marcel, op-cit, P.87.
- (- ناصر الدين سعيدوني- المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 64.102)
- (- (Julien Charl Andre, l'histoire de l'Algérie contemporaine : conquête et colonisation (1827-1871), Presse Universitaire Française , Paris , 1964 , P.13
- (66)- Emrit Marcel, op-cit, P87.
- (67)- من أغني يهود وهران، نذكر مردوخي دارمون، الذي جمع ثروة طائلة، تمكن بها من بناء معبد لليهود بوهران سنة 1792م، و ذلك لأنه كان من المقرين للباي الذي كان يكلفه بأمور المالية أنظر : René Lapene, op-cit, P92
- (68)- Ibid, P.93.
- (69)- ناصر الدين سعيدوني- المهدي البوعبدلي، المرجع السابق ، ص 103.
- (70)- نفسه، ص 103.